

محمد مندور

إشكالية العلاقة بين الصحافة والنقد

د. نبيل حداد

جامعة اليرموك

الملخص:

حين رحل محمد مندور (1907-1965)

استمر السؤال الإشكالي الذي واكب نشر نتاجه على امتداد مسيرة عطائه، قائماً حتى أيامنا هذه:

هل اتخذ مندور للصحافة وسيلة أساسية لنشر جُل نتاجه النقدي يعني أن هذا النتاج أقرب إلى الجهد الانطباعي منه إلى الدرس المنهجي، أم أن المسألة لا تعدو اجتهاداً لدى هذا الناقد صاحب الموقف الاشتراكي، بأن الصحافة تظل الوسيلة الأفضل لوصول رسالته إلى أوسع قطاع ممكن من الجماهير التي طالما أعلن إيمانه بحقوقها والتزامه بقضاياها؟... تلکم هي المسألة التي تحاول هذه الورقة مناقشتها وتسعى لبلوغ بعض النتائج الدالة حولها.

الكلمات المفتاحية: - المقال - الصورة القلمية - الكتابة الانطباعية - الكتابة المنهجية.

Abstract

The research is about a major issue in the great critic's corpus, Mohammed Mandour, which has become an issue in virtue of the continuous discussions about it. In other words, discussions about the "problem" keep the window open or in an ajar position at best in

front of the fruitful debate, provided that the right method is used.

The issue, or problem, of this research is summed up in the following question: is Mohammed Mandour's corpus that was published by the press on a par with the methodological diligence in his commonly known limits? Or better yet, does it, critically speaking, cross over the impression frame which has now become a marker for superficial methodological effort?

Or, was what Mandour published by the press no different, whether on the intellectual level or in a methodological framework, from his publications in the form of theses, books or in-depth studies?

The aforementioned question paved the way for bringing up the case concerned with Mandour's connection to the press as a profession, mission, as well as a writing journey that has struggled and left behind a psychological legacy in various journalistic forms with its well-known means. That has now, upon the efforts that compiled this legacy and documented and studied it, made it clear that it is indeed the effort of an institution called Mohammed Mandour.

Keywords: article, feature, impressionistic writing, methodical writing.

1/ الصحافة والأدب: مقارنة عن المرحلة:

ما زال عدد من الكتاب المنهجين، ينظرون إلى المادة النقدية المنشورة في الصف (أو المجالات الثقافية غير المتخصصة) بوصفها جهداً انطباعياً أقصى ما يمكن أن يحققه تثقيف القارئ العادي من خلال تبسيط القضايا وربما تسطيح المسائل. لذا؛ وحسب هؤلاء، فإن موضع نشر المادة النقدية المنهجية، أو الرصينة، هو الكتب أو المجالات العلمية المتخصصة والمفهرسة.

ربما لم تكن الأمور بمثل هذه الصرامة قبل سبعين أو ثمانين عاماً، حين بدأ اسم محمد مندور يتردد في الأوساط الأكاديمية والساحة الثقافية؛ ذلك أن الصحافة العربية ظلت لأكثر من نصف قرن من مسيرتها الاحترافية التي بدأتها قبل مئة وخمسين عاماً تقريباً، الملاذ الوحيد - تقريباً - أمام الكتاب والأدباء والمفكرين لبث دعواهم، بالمقال تحديداً، وإيصال رسائلهم الثقافية والوطنية لجمهورهم، بأعداده القليلة التي كانت بالكاد تقرأ أو تهتم...

كان ثمة دوريات ثقافية (ولا أقول أدبية فقط) متخصصة، ولكن الحياة الثقافية، وحركة النشر جزء مهم منها، كانت ضيقة، أضف إلى ذلك أن حركة النقد الحديث، لم تكن بالاتساع الذي تعجز عن استيعابه - آنذاك - حركة نشر الكتب، أو المجالات الثقافية.

وعلى الرغم من تلك الملاحظات فإننا ومن نظرة عابرة يتضح أن معظم ما لدينا من كتب الرواد، وتحديداً من كتب الجيل الذي سبق مباشرة جيل مندور، أو زامنه فترة قصيرة.. كان ثمرة لما نشره هؤلاء في الصحافة (يومية كانت أو غير يومية) أو المجالات الثقافية العامة. ويكفي أن نستحضر بعض العنوانات لتأكيد هذه الحقيقة التاريخية: "حديث الأربعاء" لطف حسين، و"وحي القلم"، للرافعي و"ساعات بين الكتب والحياة" للعقاد، وغيرها الكثير بطبيعة الحال.

أضف إلى ما سبق أن الصحافة المصرية، ظلت حتى نهاية الحرب الثانية، أقرب أن تكون صحافة رأي لا صحافة خبر، وكانت مادة الصفحة الأولى هي المقالة Article وليس القصة الإخبارية News Story، وظل هذا الأمر قائماً حتى بداية الحرب الثانية؛ فمع نذر

هذه الحرب واندلاعها في نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي؛ أخذت الأحداث العظام تتوالى على مستوى الكرة الأرضية؛ فمن معارك مصرية، إلى تحولات في خرائط جديدة ترسم بين عشية وضحاها خطوطاً جديدة بين بلدان العالم، إلى سقوط ملايين الضحايا... كل هذا جعل اهتمام الناس يتحول من الاهتمام بالآراء إلى الانشغال بالأحداث، لاسيما أن قراء الصحف، وهم في غالبيتهم من الطبقة الوسطى يتزايدون مع اتساع دور طبقتهم، لانتشار التعليم وتعاظم الوعي⁽¹⁾.

وكان مما عزز أهمية الخبر لدى الجمهور على حساب الرأي بطبيعة الحال، تطور أدوات الاتصال السلوكية واللاسلكية؛ فكان خبر سقوط باريس مثلاً يعلمه القاصي والداني والمتعلم والأمي، في دقائق معدودة، حينما غزا المذيع كل مجلس، وراح يصنع اهتمامات الناس ويوجه أنظارهم إلى هذه البقعة أو تلك، وهذا الحدث الكوني أو ذاك... ولعل مصر بحكم واقعها الثقافي كانت أكثر البلدان العربية اهتماماً بما يجري فيها أو حولها، شمالاً حيث غزوات هتلر (Adolf Hitler) في أوروبا، ومعارك موسوليني (Mussolini) ورومل ومونتغمري على أرضها، (Montgomery) أو شرقاً حيث فلسطين بتطوراتها المصرية، وحكومة فيشي ونشاطها في سورية ولبنان.

ولا يعني هذا التحول في اهتمامات الصحافة، أن مساحة النشر في الصحف، والدوريات بعامة، قد ضاقت أمام كتاب الرأي في المسائل الثقافية بخاصة، بل قد يكون العكس هو الصحيح؛ ذلك أن الإصدارات الدورية قد زادت، ومحمد مندور في إصداره لمجلة "البعث" في منتصف الأربعينيات مثال على هذا، ولو أن تجربة مندور لم يقيض لها الاستمرار سوى بضعة أشهر لتبطل بها أدوات القمع السياسي آنذاك. ولا شك في أن هذا "الازدهار" في إصدار الدوريات قد فتح مساحات جديدة أمام الكتاب، ولكن التطور السلبي، بالنسبة لعلاقة الأدب بالصحافة، تمثل في تراجع أهمية المقال وانتقال مكانه إلى الصفحات الداخلية، وهذا يشير بكل بساطة إلى أن نسبة القراء قد تقلصت؛ إذ لم يعد الشأن الأدبي أول ما

يُطالع، بل لا يكثر به إلا من يهتم فيه ويسعى إليه، ويبدل جهداً، ولو طفيفاً، للوصول إليه.

ولكن لماذا هذا الانسياق من مندور وراء الصحافة واتخاذها وسيلة أساسية لإيصال جهوده الأدبية والنقدية ودفع رؤاه الفكرية والسياسية إلى المتلقين من قراء الصحف تحديداً؟ واضح أن مندور يدرك ما للصحافة، بكل أشكالها، من تأثير واسع ومباشر. إنها وسيلة اتصال "جماهيري"، ومن الطبيعي أن تلبي هذه الوسيلة ما يطمح إليه من بث أفكاره وتحقيق ما يراه واجباً عليه من تثقيف الناس بكل قطاعاتهم، وهو السياسي المتطلع للمشاركة في الشأن العام، والساعي إلى عضوية البرلمان.

وأتاح له إتقانه عدداً من اللغات الحية والقديمة مخزوناً علمياً ومعرفياً متراكماً، وكان متابعاً مثابراً لكل ما يستجد من علوم ومعارف وإصدارات. فإذا اجتمع هذا في مثقف وأكاديمي وسياسي صاحب موقف ورسالة، لم يجد ما يسعف تطلعاته ويساعده في مسؤولياته تجاه عموم الناس، مثقفين ومتعلمين ومهتمين، أفضل من الوسيلة الأولى في التثقيف الجماهيري: الصحافة.

أضف إلى ما سبق أن الصحافة ربما كانت المهنة شبه الوحيدة المتاحة أمام الرجل بعد أن تم استبعاده عن العمل في المجالين الأكاديمي والسياسي.

ولكن هل تم هذا على حساب المستوى؟ المعيار الصحيح هو قراءة هذا الإنتاج الذي قدمه مندور من خلال نشره في الدوريات، ثم الحكم على هذه المادة النقدية من خلالها وليس من خلال الموقف الانطباعي السائد الذي يقوم على الحكم المسبق: هذا عمل صحفي؟ فهو انطباعي حكماً!

وعلى ما يبدو فإن العديد - إن لم نقل كل - مؤلفات مندور التي نداولها ونتخذ بعضها مقررات دراسية لطلبتنا، وربما استندنا إليها في تدبير مفاهيمنا النقدية بأيسر السبل، وأسلس الطرق ... كانت في الأصل مادة منشورة في الدوريات، ولكن تكمن وراءها فكرة الموضوع المتكامل الذي يجعل من السهل إعادة إصدارها على الأسس المنهجية المتكاملة

والملبية لشخصية "الكتاب" وبنائه⁽²⁾. إنها مادة غزيرة قدمها مندور لمن عاصره من زملاء وباحثين وطلبة، وكذلك لمن جاء بعده من هؤلاء فحقق بذلك عدداً من الأهداف.

ارتقى بالمادة الصحفية دون أن يهبط إلى بعض مستويات الخطاب الصحفي، وأسهم في جعل الصحف العامة والمجلات غير المتخصصة أداة تثقيف حقيقية بل ناجعة ومؤثرة، ويكفي أن نستعرض فهرس كتبه المجمع مما نشر بالدوريات ليظهر لنا أننا إزاء عطاء معرفي ومنهجي متميز. وبهذا فإن جهود مندور أثرت الصحافة بما فاق معظم ما قدمه معاصروه من النقد والكتاب من خلال هذا الطريق، كما ومستوى.. بل عمقاً ونهجاً... فالعجالة العابرة التي كان مندور يقدم من خلالها قضية ما أو مقارنة مكثفة لمذهب أو اتجاه مازالت مادة يُعول عليها بسهولة من أراد الخروج بمفهوم واضح متماسك لمفهوم الواقعية الاشتراكية أو الواقعية النقدية، مثلاً. نعم إن جهود مندور أسدت للصحافة وللأدب والنقد وللمتلقي العربي خدمة قد لا تضاهيها سوى جهود الفريق المختص.

2/ تجربة ورسالة:

يلاحظ المتفحص لنتاج مندور الذي جاءنا عن طريق الصحافة أن نشر هذا النتاج جاء متوافقاً، من حيث الموضوع والمضمون والشكل الكتابي، مع معطيات المرحلة التي نُشر فيها، ومع منظوماتها الفكرية والسياسية.

ويمكن القول إن هذا النتاج ينتسب، مرحلياً (وموضوعياً تبعاً لذلك)، إلى ثلاث منظومات مرحليه هي: جهود الأربعينيات، ويغلب عليها المحتوى السياسي والصحفي ببعديهما الفني والقانوني، ثم جهود الخمسينيات ويغلب عليها طابع التبشير السياسي (ببعده الاجتماعي) بالدعوة لقيام نظام جديد ومجتمع جديد يقوم على فكرة العدالة الاجتماعية، والمنظومة الثالثة - في الستينيات - غلب عليها التناول النقدي التطبيقي للنشاط الأدبي و الفني، في مختلف ألوانه وأشكاله.⁽³⁾

ولا يعني ما سبق أن ثمة تصنيفاً حدياً يمكن أن يفصل بصورة قاطعة بين مضامين المراحل الثلاث المشار إليها؛ ولكن - في الجانب المقابل - فإن غلبة الكتابة في السياسة أو

الصحافة (واقعها ونظرياتها وتشريعاتها) في الأربعينيات لا تنفي التداخل بين موضوعاتها (وقد تم جمع العديد من مقالاتها في كتاب: "الصحافة وحريتها / الفنون ووحدها") ومقاربات أدبية وفنية كثيرة شهدت الأربعينيات والخمسينيات، وهو ما تشير إليه بوضوح محتويات هذا الكتاب، هذا في الوقت الذي شهدت فيه النصف الأول من الخمسينيات، كتابات سياسية غزيرة، وجلها يصب في التبشير بالمكتسبات التي يمكن أن تتحقق للجماهير العريضة إذا ما ترسخ النهج الاشتراكي، مستهدياً أسس العدالة الاجتماعية، وهذا التوجه امتداد لكتابات صحفية كثيرة استهل بها مندور مسيرته في الصحافة، بعد إصداره مجلة "البعث" (1946) ثم عززت التوجه الحنئ التي تعرضت لها المجلة وصاحبها.

إنها إذن منظومة متعددة الموضوعات، متنوعة الاهتمامات، متكاملة الأهداف: السياسة والصحافة والفن. كل ذلك في رسائل محكمة ترنو بلوغ أوسع قطاعات الجماهير، ووراءها هدف أساسي واحد: مجتمع اشتراكي يكفل عدالة اجتماعية، مع ما يستتبع هذه المنظومة من استحقاقات سياسية من السلطة، وأدوار تؤسس لبنى فوقية تقدمية؛ كيانها الأساسي من أصحاب الفكر والمتقفين؛ كتاباً وباحثين وأكاديميين وإعلاميين ... إلخ.

من الضروري أن نفترض بداية أن هاجس مندور الأول مع بدء نزوله إلى الحياة الصحفية (بالشكل الاحترافي) كان الخوض في الميدان العملي. صحيح أن الجانب الأكاديمي ظل حاضراً معه، ولكن "الميدان" العملي في الصحافة والسياسة ظل وجهته الأولى.

وجد مندور إذن - وهذا ليس محض افتراض بل استقراء تاريخ مسيرة ماثلة - ضالته في الصحافة للدعوة إلى ما يؤمن به من مبادئ الاشتراكية والعدالة الاجتماعية، فكانت "مغامرته" في إصدار "البعث" سنة 1946. لم يكن للمجلة ظهور سياسي أو رأسمالي بل سندها فردي فحسب؛ فتوقفت عن الصدور دون أن تكمل العام الأول من عمرها.⁽⁴⁾ ولكن مندور لم يكن يسعى في الأصل إلى بناء مؤسسة بقدر ما كان ينشد إيصال رسالة، لذا؛ فإن إغلاق "البعث" لم يفت في عضده، فهو كاتب في بيئة ثقافية متقدمة ونشطة، بل إن النصف

الثاني من الأربعينيات -تحييداً- شهد حراكاً سياسياً وفكرياً حواراً كان يؤسس ولاشك لما ستشهده البلاد سنة 1952 وما بعدها.

لقد طرقت أبواب المرحلة (الأربعينيات ومطلع الخمسينيات) بعنف دعوتان أساسيتان، قدر لهما أن يهيمننا على المشهد السياسي في مصر والمشرق العربي لعقود: الحركة الاشتراكية، وحركة الإسلام السياسي ممثلة-بخاصة- في جماعة الإخوان المسلمين. ونعرف جميعاً أن حركة التاريخ مالت أولاً لصالح الدعوة الاشتراكية بعد أن تبنى النظام الجديد أطروحاتها وراح يؤسس على هدي مبادئها مجتمعاً جديداً.

وكان من حسنات الظروف المعاكسة -كما يقولون- بدايات شد وجذب اعتورت تجربة مندور الأكاديمية... فأدرك مندور بأن الوسيلة الأنجع لإيصال صوته الأدبي والنقدي من جهة، ورسائله الفكرية والثقافية من جهة أخرى، إلى الجماهير العريضة كانت الصحافة... لم يستسلم مندور أمام محنة مجلته، أو أمام الظروف الأكاديمية المتعثرة - بجانبها الوظيفي؛ فأخذت كتاباته ترى متكناً على أشكال الكتابة الصحفية المختلفة: المتابعات Follows، والمقال Article (بأنواعه المختلفة؛ موضوعات وقوالب)، والتعليق Comment، والصورة القلمية Feature. والمؤكد أن لمندور باعاً في القصة الإخبارية News story إذ إن من يمتلك ناصية الكتابة في الأشكال المشار إليها، ومن خاص تجربة إصدار المجلة، لن تعوزه مهارات المندوب Reporter أو المحرر Editor⁽⁵⁾ ولكن هذا الجانب الأخير من شخصية مندور الصحفية، قد لا يحتاج وقفة خاصة لبداية معطياته ولوضوح تجلياته في الأشكال الأساسية في كتابة الصحيفة سواء عند مندور أو غيره.

3/ رؤية تنظرية وجهود تطبيقية:

من يقرأ كتابات مندور يجد أن اهتماماته الأولى في الكتابة الصحفية كانت منصبه حول الأسس النظرية و"القولاب" الفنية للمهنة ذاتها، أي الصحافة. هذا على الأقل ما ينبئنا به كتاب "الصحافة وحرثها/ الفنون ووحدها" الذي جمع مادته طارق مندور بمناسبة مئوية محمد مندور (2007).

وتضمن كتاب " الصحافة وحريتها... الفنون ووحدتها" مقالة لافتة بعنوان: "الرأي العام"، كان مندور قد نشرها في الأصل في "الوفد المصري" في يناير 1945.⁽⁶⁾ وكأن هذا العنوان "الرأي العام" قد وضع خصيصاً مفتتحاً لكتب ستصدر - في موضوع الرأي العام - بعد ذلك بأكثر من عشرين عاماً؛ ويخلص مندور في تلك المقالة التي جاءت في حدود ألف كلمة إلى مقولة طالما أعياء كثيرين تفهمها ناهيك عن تقبلها. صحيح أنها مقولة نابغة من الموقف الفكري (الإشترائي) ولكن أحداً في أيامنا لا يستطيع أن يماري بوجاهتها اليوم بعد أن أضحت في مستوى البدهيات: "وما دامت الصحف ملكاً لأفراد أو شركات، وكان هدفها الأول هو الربح المادي، فما أظن أننا (والكلام لمندور) نستطيع أن نرجو من ورائها خيراً كثيراً في تكوين رأي عام سليم، وذلك لأن حرصها على الانتشار يدفعها إلى اللعب على غرائز القراء"⁽⁷⁾

ويخلص مندور في هذه المقالة إلى حقيقة مازلنا إلى اليوم نعاني من مترباتها؛ فالرأي العام في بلادنا لم ينضج بالدرجة الكافية؛ لأنه وليد لفلسفات فردية تشع في المجتمع. والمجتمع بدوره لا يستطيع أن يتمثلها إلا إذا تركت له الحياة الاقتصادية من الراحة والفرغ ما يمكنه من تأملها. وتلك الفلسفات لن تنمو إلا عن طريق المعلم والصحيفة ولا بد أن ننتظر ويبدو أننا ما زلنا ننتظر..⁽⁸⁾

هكذا، حين يكتب مندور في "الشأن الصحفي" فإنه ليس كمن يدلي دلوه في حدث عابر أو ظاهرة مكررة سئمها الناس ولم يعد الحديث فيها مجدياً... إنه بهذه المقالة -مثلاً- يرسى أسس الظاهرة، ويشخص أبعاد القضية، ويستشرف آفاق مسائلها، ويقترح الحلول، ويتنبأ بالتبعات... وهذه ركائز أبعد من أن تكون كتابة صحفية "انطباعية" فحسب. صحيح أن الإطار هنا شكل من أشكال الأداء صحفي، ولكن المضمون أدبي نقدي ثقافي سياسي معمق، بل ومنهج، بقدر ما يسمح به إطار الشكل الكتابي: "المقالة". وهي اللون الذي اعتمده مندور وعاءاً كتابياً لمعظم ما كان يقدمه لقرائه عبر الصحافة.

ويلتزم مندور بالأدبيات السائدة التي تحكم إطار المقالة أو المقال؛ فناء التأنيث المربوطة (في كلمة مقالة) للتصغير على الأرجح مما يناسب إمكانيات النشر في ضوء المساحة المتاحة. وهي أسس أضحت أدبيات أخذت تجلياتها مع عبد العزيز البشري، ومن بعده الكبار من أمثال طه حسين والعقاد والمازني وهيكل... إلخ. ثم صاغ لها شروطها وحاول أن يرسم حدودها النظرية أكاديميون من أمثال: أحمد أمين، ومحمد يوسف نجم، وعبد العزيز عتيق، وزكي نجيب محمود، وعبد اللطيف حمزة، وعمر الدسوقي، ومندور نفسه، وغيرهم كثر بطبيعة الحال⁽⁹⁾.

ولعل أبرز تلك الشروط المتفق عليها في بناء المقالة ما اتصل بطولها؛ فهو قصير أو متوسط على الأكثر لضرورة مراعاة المادة المكتوبة لمساحات النشر المحدودة في الصحف، إضافة لأسلوبها المكثف بحيث تتجه كل كلمة صوب المعنى مباشرة دون ترف في تبذير الجمل أو تكرار للألفاظ الفائضة أو ملاحقة التعبيرات على سبيل الاستطراد والإلحاح غير المجدي على الفكرة نفسها.

على أن الملاحظة الأساسية لفن المقال عند مندور تظل في غزارة المادة المقالية وثرائها المعرفي ومواكبتها للحياة السياسية والثقافية في مصر لأكثر من عقدين، دون توقف. وبكلمة أخرى فإن هذه المادة سجل شبه يومي لوقائع النشاط المصري السياسي والثقافي بل والفكري طيلة تلك الفترة.

لا يتوقف مندور طويلاً عند عنصر الخبر؛ لبداية مفرداته في هذا السياق؛ لكنه يعاود الوقوف المتأني -ولو بإيجاز وتركيز- عند عنصر الرأي؛ فيصنّفه إلى نوعين: رأي نابع من موقف حزبي، ورأي نابع من موقف مستقل، وهذا موضعه ما يطلق عليه "الصحف المستقلة"... ولا يفوت مندور -في عرض مفاهيمه المبكرة، هذه - أن يقدم اجتهاده الخاص حول مفهوم "المستقلة" الملتبس في هذا السياق. واجتهاد مندور في عرض مفهومها نابع من تجربته وإحاطته: لا وجود على أرض الواقع لهذا النوع من الصحافة، مهما علت الادعاءات لهذا النوع من الصحافة، ومهما سيقّت الدلائل⁽¹⁰⁾.

وبعد، فإن المقالة التي تم عرضها كانت جزءاً من محاضرات ألقاها مندور - وهو الأكاديمي أولاً وأخيراً - على طلبة معهد الصحافة في العام الجامعي 54-55 أي قبل أكثر من ستين عاماً. وتأتي أهمية هذه المحاضرات من أكثر من وجه؛ أولها هذا الفهم الأكاديمي المنضبط والمبكر لمفردات مازالت المعالجات حولها يشوبها اللبس والتناقض، وثانيهما هذا العرض المنهجي الذي قسم فيه مندور مفردات موضوعه إلى عدد من الوحدات قد تعادل "الوحدة" منها مقالاً قائماً متكامل العناصر، متسق المكونات... يكاد كل منها يحيط بقضيته؛ فإذا أدرجته بمنظومته التي تمتد لحوالي خمس عشرة وحدة مقالية كان له موضوعه "العضوي" المتكامل ومكانه الراسخ بين ما سبقه أو ما جاء بعده.

استطاع مندور من خلال هذه المحاضرات أن يزيل الحدود المصطنعة بين الكتابات التي تتوخى الغايات الأساسية للاتصال، بلغة تجمع بين عمق الفكرة، وبساطة الأسلوب، وهو بهذه المقالات -أو الدروس- استطاع أن يصل إلى جمهوره من مختلف المستويات مجاوزاً كل المقولات المكررة حول انطبعية الكتابة الصحفية.

ولئن كان عبد العزيز البشري في موقع الرائد في فن المقالة العربية بعامة⁽¹¹⁾، وكان المازني المبدع الأهم في المقالة الأدبية (أدبية الشكل والأسلوب لا أدبية المحتوى والمعلومة)؛ فإن جهود مندور بما قدمه من مئات المقالات يعد عنوان "المقالة التحقيقية"، بكل معطيات الثقافة ومجالاتها، في الحقول الإنسانية، من أدب ونقد تنظيري وتطبيقي (في معظم الأنواع والأجناس) إلى الصحافة وقضاياها الفنية والموضوعية، إلى الاقتصاد والسياسة، إلى التاريخ الفكري والإنساني وأهم رموزه وأعلامه... إلخ. مندور إذن؛ عنوان مهم للمقالة التحقيقية في الصحافة العربية وجهده فيها، كمّاً ونوعاً ومستوى، ظاهر في الكتب التي تم جمعها وإصدارها بعد رحيله، والمكون الأساسي لمادة هذه الكتب هو المقالة التحقيقية، سواء تطرقت للإصدارات الجديدة في الشعر والسرد والمسرح، أو في متابعته لما يعرض من أفلام ومسرحيات وعروض فنية، حيث كانت مصر تعيش حركة ازدهار ثقافي ضمن البرامج النشطة التي أطلقتها آنذاك وزارة الثقافة في عهد الوزير ثروت عكاشة، وتحديدًا ما بين 1958 و1965⁽¹²⁾.

4/ الصورة القلمية:

على أن "الجهود الصحفية" لمندور تأخذ —من جهة أخرى— أجلى صورها الفنية، وأكثرها اقتراباً من شروط الإبداع الأدبي بما استقر على تسميته في أيامنا هذه بـ "الصورة القلمية" Feature. جاءت كتاباته في هذا النوع بعد أن نضجت التجربة وتمرس؛ فأصبح يصدر عن رؤية متكاملة: إنسانياً وثقافياً وتاريخياً. أي، في السنوات العشر الأخيرة من عمره القصير، وهي —في كل الأحوال— السنوات الأكثر سخاء والأقوى حضوراً، وأصبح قلم مندور أغزر عطاء وأشد استجابة لشروط النوع الكتابي والصحفي، معاً؛ وظهر هذا في جهوده في كتابة "الصورة القلمية".

قد يطلق البعض، ولا سيما في الوسط الإعلامي، أوصافاً متعددة على الصورة القلمية، استعانة بأوضاع الصورة الفوتوغرافية، وذلك من قبيل البورتريه (أي اللقطة الأمامية) أو البروفايل (الصورة الجانبية)، ولكنها أي الصورة القلمية —بكل أشكالها— تظل أقرب أن تكون إلى مقالة (بالشكل البنائي للمقالة) حول إحدى الشخصيات غالباً ما تتسم بالشهرة، والإنجاز الاستثنائي في مجال من مجالات العطاء الإنساني، أو ربما حظيت —أو تحظى في زمن الكتابة— بدور مهم في حراك ثقافي أو سياسي أو ... في لحظة تاريخية حاسمة

وقد لا نغالي في القول إن لمندور —بجهوده الريادية في الحقول التي كتب فيها، بشكل عام— فضل الريادة كذلك في هذا اللون من الكتابة الصحفية بشكله الاحترافي. صحيح أن الصورة القلمية عرفت طريقها إلى قلم عبدالعزيز البشري، وهو الرائد الأول للمقالة العربية في العصر الحديث، وكذلك الأمر بالنسبة للمازني، أفضل من كتب المقالة "الأدبية" بشروطها الفنية عبر مسيرة الأدب العربي الحديث ... وكلاهما له في مقالة "الصورة القلمية" باع، ولكن جهود مندور في هذا اللون بدت الأكثر استجابة لشروط كتابة هذا اللون⁽¹³⁾. ذلك أنه، بدءاً من منتصف الخمسينيات —على وجه التقريب— بدأت رحلته في هذا اللون المقالي؛ فكانت ثمرة قلمه في هذا اللون صور "بانورامية" مترامية الأطراف عن حياة من أعلام الفكر والأدب

والفن، عرض لجوانب من شخصياتهم وانطوت معالجاته على صور ضافية للعصور التي عاشوا فيها.

في كتاب: أساتذة وزملاء في حياتي (جمع وتقديم طارق مندور 2007) ما يقارب الثلاثين مقالة مما تنطبق عليها، بشكل أو بآخر شروط "الصورة القلمية". وإذا يتحدث العنوان عن علاقة مندور بمن كتب عنهم؛ فهم إما أساتذة تعلم على أيديهم ونهل من تجاربهم وتراثهم، أو زملاء عاصروهم أو زاملهم، فأكسبته هذه الصلة دراية هيأت له الكتابة عنهم؛ ورسمت مضامين هذه المقالات/الصور القلمية معالم حياتهم وأبرزت ما أنجلت عنه عبقرياتهم وأسفرت عنها أدوارهم بتأثيرات تجاوز أزمانهم وبيئاتهم.

ضمت هذه القافلة شخصيات تاريخية من ثقافات مختلفة وعصور متباعدة؛ فمن ديموستين Demosthenes اليوناني خطيب الحرية، إلى بركليس Pericles زعيم أثينا (قبل الميلاد بأربعة قرون على الأقل) الذي أرسى مبادئ الديمقراطية، إلى سبارتاكوس Spartacus البطل الملحمي الشهير ... شهيد الحرية أمام ظلم روما، إلى غير هؤلاء في العصور القديمة. أما في بدايات العصر الحديث؛ فإن الصور القلمية -في معظمها- جاءت، بشكل أو بآخر، عن رواد الحركة الثقافية في مصر بدءاً من نهاية القرن التاسع عشر وحتى الستينيات من القرن الماضي ...

وكان طبعياً أن تشمل هذه الصور القلمية طه حسين أستاذ مندور وصديقه اللدود، إضافة إلى عدد من جيل الرواد من مثل: جمال الدين الأفغاني، ولطفي السيد، والمنفلوطي، والمازني، وعبدالرحمن شكري، وأحمد زكي أبي شادي، وسلامة موسى، وتوفيق الحكيم، ومي زيادة وآخرين. وثمة صور أخرى لشخصيات مؤثرة على المستوى الإنساني من مثل: تولستوي Tolstoy، وبرتراند راسل Bertrand Russell، وبرنارد شو Bernard Shaw وغيرهم....

وكما الأمر بالنسبة للمقالة، فإن أول ما نلاحظه في هذه الصور القلمية التي قدمها مندور: عنواناتها؛ فإن العنوان هنا ليس تقليدياً يعلن عن المضمون ويشجع القارئ على مواصلة القراءة فحسب، بل إنه عنوان قضية، بل القضية الأساسية التي ارتبطت بالشخصية

موضع "التصوير"؛ فعنوان الصورة القلمية للظفي السيد مثلاً ارتبطت بكونه: "أستاذ الجيل ... عَلم الجيل"، أما ابن خلدون فإن أهم ما ترسخ عنه التأصيل أو الأصالة بما تعنيه من سبق وريادة؛ لذا جاء العنوان: "أصالة ابن خلدون".

هكذا إذن يضاف بعد جديد، وربما جدلي لعنوان كل صورة. هذا البعد هو ما ينأى بها عن نمطية التناول ورتابة العرض وتكرار البنية وسهولة التبليغ بالبيانات والمعلومات دون سعي لاستنفار الجانب الراكد (حول الشخصية) لدى المتلقي؛ بل هو عنوانٌ مقولٌ، تتضح بالحيوية، ولو عن طريق مخالفة السائد أو مناهضة الضد؛ فالمنفلوطي الرومانسي الرقيق هو: "المنفلوطي الأديب النقدي الثائر"، أما سلامة موسى الذي ناله ما ناله من سهام التجريح من معاصريه وممن جاء بعدهم؛ فهو: "سلامة موسى المفترى عليه". وثمة جانب آخر في شخصية برنارد شو لا يتوقف عنده -في العادة- من يتحدثون عنه: "برنارد شو ... من كبار المتمردين على الماركسية".

وعادة ما تتسم الصورة القلمية عند مندور بالشمول؛ فلا يترك جانباً معروفاً، وربما غير معروف، في شخصية صاحب الصورة إلا تعرض له بصورة أو بأخرى، مما يعني أنه يقدم وجبة لقراءة متكاملة قد تغني الباحث المتبصر وترضي القارئ المتعجل... الصورة القلمية عن مي زيادة التي نشرها مندور سنة 1958 أي بعد وفاة مي بما يقرب من سبعة عشر عاماً تقدم محتوى متكاملاً وبناءً نموذجياً بل محكماً للصورة القلمية كما يخطها مندور، يقول:

" عند ظهر يوم الأحد 19 أكتوبر سنة 1941، توفيت الأديبة اللامعة الأنسة مي زيادة. وفي حفل تأبينها الذي أقيم عندئذ، وقف الدكتور طه حسين ليستهل تأبينه لها بأبيات بالغة الرقة للشاعر العربي القديم ذي الرمة..."

ويعزز مندور ما كان ذهب إليه طه حسين في رثاء مي بعد رحيلها باستحضار بيتين من الشعر عنها قاهما إسماعيل صبري أثناء حياتها؛ وكأن "مندور" شعر بعد هذا الحشد من شهادات الشعر والشعراء والأدباء أن القارئ بات مهيناً، بل منتظراً الخوض في الحكاية من بدايتها؛ فراح يتتبع أكرولوجياً المخطات الرئيسية في رحلة مي التي امتدت حوالي خمسة

وخمسين عاماً... بين مولدها في فلسطين وتنقلها بين لبنان ومصر، ثم انتهاء رحلتها بالمعاناة الأخيرة في لبنان واستقرار جسدها، وربما روحها، في مثواها في القاهرة سنة 1941.

يتتبع مندور مراحل تعليمها، وبشائر إبداعها الشعري، والعوامل الأساسية في تكوين شخصيتها الأدبية والاجتماعية، ثم يتوقف بنماذج دالة عند إرثها النثري الذي يأخذ من الشعر أثريته وموسيقاه، ويستمد من النثر هواجس الحياة وتحولاتها. ويتوقف عند أساتذتها (في مصر) ومريديها من الأدباء المعاصرين لها، وهم نخبة النخبة في الحياة الثقافية في مصر خلال العشرينيات والثلاثينيات، ثم يولي حكايتها مع جبران عناية خاصة من خلال بعض الاجتهادات التي تفرد بها مندور حول هذه العلاقة العجيبة بين عاشقين لم يتقابلا قط⁽¹⁴⁾، ثم يبرز هاجساً أضحى اليوم مهماً في حياتنا الإنسانية بعمامة، حين التفت إلى رأي مي في جعل أدبه المرأة وقضيتها موضوعاً واحداً. وكانت الوقفة الأخيرة عند رسائل مي؛ فيطلق مندور دعوته إلى البحث عن المزيد مما لم ينشر أو يعرف من هذه الرسائل.

هذا عن محتوى تلك الصورة القلمية، ولكن ماذا عن بنيتها؟

لعلنا لاحظنا أن "الاستهلال" قام على شهادتين شخصيتين ممن يُعتد بما يقولان؛ من مثل طه حسين وإسماعيل صبري، وعادة ما تصدر "الشهادة الحية" حول شخصية عن تقييم شامل للتجربة الإنسانية؛ ولعل الأديبين الشاعرين هنا في موقع يؤهلها مثل هذه التقييم لمي زيادة؛ إن يكن هذا بحكم التجربة الطويلة والمباشرة، فبحكم الحجم الأدبي والفكري لكل منهما. ويلتقط مندور هذه الأرضية الصلبة، لينبني عليها الأسس التي قامت عليها الحكاية من بدايتها: مكان الولادة وزمانها، ومراحل التعليم، وأماكن الإقامة، واتصالها الوثيق بالتراث... إلخ.

وهكذا فإن راسم الصورة القلمية، حين يشعر أنه استجمع خطوط ما يراه ضرورياً للقارئ العادي، أو حتى للمتخصص، عن صاحب الصورة، عادة ما يقدم قفلته، بل قل لمسته الأخيرة من ريشته، وهي لمسة تمر على مكونات الصورة كلها، وتحاول أن ترتقي بعناصر الصورة ومكوناتها إلى أقرب مراحل الاكتمال: "لقد ضربت الأنسة مثلاً رائعاً للأدبية العربية

المعاصرة، التي تستطيع أن تجمع بين مختلف الثقافات والعادات في اتزان يكسب حياتها وإنتاجها الجمال والخلود⁽¹⁵⁾.

5/ المساجلات النقدية ... من جديد

كان من ثمار اشتغال مندور في الصحافة كاتباً ومحرراً، أنه بفكره الجدلي وشخصيته النزالية - إن جاز التعبير - أن تصدر معاصريه من الأدباء والنقاد وسائر الكتاب في إعادة الألق إلى ظاهرة أدبية صحفية كانت دائماً الشهادة الحية على حيوية المرحلة التي تنتعش فيها، ودليلاً على توثب أعلام هذه المرحلة من أصحاب القلم وذوي الفكر والأدب والثقافة بصورة عامة؛ وأعني بها ظاهرة المساجلات الأدبية، ولو شئنا الدقة في التعبير لذهبنا إلى أن المساجلات ليست ظاهرة فحسب، بل هي أقرب إلى شكل كتابي قائم بذاته.

لا تقتصر المسألة عند مندور على "المعارك" فحسب؛ فقد أفرد لها كتابه المشهور "معارك أدبية"⁽¹⁶⁾ كما أن بعض "معارك" مندور الكبرى أوسع من أن يستوعبها "ميدان" الصحافة؛ ولكنني أود أن أتوقف عند المساجلات التي كان للصحافة، وللجانب الصحفي عند مندور تحديداً، أثر مهم في انبعائها بل قل في تجديدها بأشكال تتلاءم وأدوات العصر ومقتضيات النشر في الدوريات وفي صحافة ما بعد الحرب العالمية الثانية تحديداً.

ما سبق يعني أن بعض ما قامت عليه هذه المساجلات كان قد تم التطرق إليه في الصحافة في العشرينيات والثلاثينيات ولكن بوصفه دراسة أو مقالاً "منبتاً" دون شكل المساجلة بالضرورة؛ مثل الكتابات عن الأعمال الروائية لطف حسين والمازني والعقاد، ولكن مندور جاء ليتناولها برؤى جديدة ومعالجات معاصرة من مخزونه النقدي الحديث وأدواته المتطورة، وكذلك بالتفاتاته الحساسة التي تتلاءم والتطور الذي أصاب الصحافة في اشتراطاتها الضمنية التي لا يستوعبها أويراعيها غير كاتب صحفي محترف بحجم مندور من جهة، والناقد بمنهاجه الحديثة التي خبرها مندور من جهة أخرى، وكثيراً ما استدعت هذه الكتابات ردوداً من آخرين كان يتبعها ردود على الردود من جانب مندور، بل كثيراً ما بادر مندور نفسه برأي

أو اجتهد حول نص ما أو قدم تصوراً لظاهرة أو صاحب تجربة لتقوم قائمة أقلام كثيرة ولا تقعد إلا بعد أن تستكمل المساجلة أبعادها وتستنفذ عزائم أطرافها.

وهكذا تجدد هذا الفن (المساجلات) بفضل الصحافة وفرسائها الجدد؛ فنجد ثمة عودة، بل مساجلة حول "دعاء الكروان" التي كانت صدرت قبل ذلك بربع قرن؛ فشهدت الصفحات الأدبية في الدوريات مساجلة مهمة، أحييت أهمية الرواية من جديد، بين مندور وعلي الراعي سنة 1961 (في مجلة الفكر). ويكفي القول إن استعراضاً عابراً لكتاب مندور "تأسيس فنون السرد وتطبيقاتها" (جمع وتنسيق طارق مندور ومحمد حسن عبد الله) يبين حجم هذه المساجلات (حول السرد بخاصة) التي خاضها مندور على أعمدة الصحف مع رموز النقد الأدبي آنذاك، من منتصف الأربعينيات حتى منتصف الستينيات، وكثير من عناوين الموضوعات التي تضمنها هذا السفر الجليل (حوالي 500 صفحة) تجسد بشكل أو بآخر معنى المساجلة الأدبية ومضمونها الدقيق: حوار نقدي على هامش النظرية، وفن الاختلاف، ومندور والمبدعون (وهذا العنوان وضعه منسقا الكتاب). وعلى أية حال فإن الوحدات التي يتكون منها كتاب "تأسيس فنون السرد"، كما هو شأن العديد من مؤلفات مندور الأخرى، تقوم - في الأساس - على شكل ما من أشكال المناظرة، أو المناظرة بعينها، وفي أقرب المعاني: الحوار، وكل هذا ما كان ليتم لولا إفادة مندور من إمكانات الصحافة، وما تتيحه من تواصل وسعة انتشار.

6/ مآزق مندور بين ضخامة الإنجازات وانحسار الحريات:

لقد فرضت علاقة مندور بالصحافة، بوصفه مثقفاً ومفكراً مجموعة من التحديات، بل قل من المضاعفات التي كان عليه أن يواجهها ويدفع الثمن باهظاً بسببها من مستقبله المهني - أكاديمياً - ولاسيما أن هذه العلاقة تواكب إيمانه الراسخ بالعدالة الاجتماعية والديمقراطية بمعناها السياسي شبه الليبرالي ومضمونها الاجتماعي الاشتراكي.

حين تعثرت مسيرة مندور الأكاديمية بسبب تأخره في الحصول على الدكتوراه وبسبب بعض الملابسات في علاقته بالأستاذ العميد (بصرف النظر عن نياله الدرجة بعد عودته من

الابتعاث ببضعه أشهر) ولما كان مندور -بطبعه- في صدر شبابه (مطلع الأربعينيات) مثقفاً ثورياً يقرن فكره بالعمل... كان اتجاهه إلى الصحافة مهنة ورسالة، أمراً حتمياً. وخاض مندور، منذ البداية معاركه الميدانية، ولا سيما حين وجد نفسه تلقائياً في الطليعة الوفدية... وتسببت آراؤه المعلنة ومقالاته النارية في اشتباكات مضنية مع السلطة القائمة آنذاك (حكومة صدقي باشا وما تبعها من حكومات الأقلية). فكانت تجربته مع السجن، ومن ثم عضويته في البرلمان. وكل هذا لا ينفصل عن فعله الصحفي بوصفه كاتباً ومحرراً صاحب دورية متعثرة، إلى أن جاءت ثورة 1952، بنقاطها الست وإجراءاتها الكاسحة لمصلحة العمال والفلاحين، ومندور فلاح ابن فلاح من بيئة ريفية، وصاحب موقف ثوري أولاً وأخيراً.. فكان من الطبيعي أن يهمل لقدموها، ويحتفي بإجراءاتها، ويصفق لخطواتها.

كان قلم مندور في الشهور الأولى للثورة، متحمساً لإجراءات العدالة الاجتماعية التي صدرت بعد أقل من شهرين من قيام الثورة، كانت هذه المرحلة، وربما السنوات الأولى من عمر الثورة قد أوقعت مندور، المثقف الثوري الأكاديمي والكاتب الصحفي المحترف، والمفكر الديمقراطي الداعي إلى الحرية السياسية أولاً وقبل أي اعتبارات ثورية أو ملابسات سياسية... أوقعته بأولى معضلاته، بل قل أولى مواجهاته مع العهد الجديد.

إنه المأزق الذي شاركه فيه لويس عوض ومجموعة كبيرة من المفكرين السياسيين دفع معظمهم ثناً باهظاً جراءه؛ لإيمانهم بضرورة استئناف الحياة الديمقراطية، جنباً إلى جنب مع المكتسبات الثورية التي بدأ العهد الجديد يحققها للأغلبية الساحقة من الشعب ولا سيما للطبقة العاملة التي نذر مندور ومجايلوه من مثقفي اليسار وناشطيه أقلامهم بل حياتهم من أجل نصره قضايها والسعي لتطبيق أسس العدالة الاجتماعية على قطاعاتها كافة.

ولكن للثورة -حين تصبح سلطة- والقائمين عليها منطقاً آخر وممارسات أخرى. ومن هنا نشأت المعضلة؛ فالنظام الثوري الجديد ماضٍ في إنجازاته الكبيرة، وتحديدًا في تلك التي تحقق تطلعات مندور بل أحلامه في تطبيق أسس العدالة الاجتماعية على طبقته التي ينحدر منها ويتبنى قضايها وسبل الارتقاء بواقعها. ناهيك عن طرد الاستعمار وتقويض قواعده

الداخلية من إقطاع واحتكار، ولكن الهدف السادس... إقامة حياة ديمقراطية ظل معلقاً.. بل تمت التضحية بمعظم المكتسبات السياسية والدستورية للحقبة السابقة (شبه اللبرالية) التي حققت قبل قيام الثورة مساحةً لا بأس بها من هامش الحريات العامة والممارسة البرلمانية... تمت التضحية بكل هذا وبرضى الأغلبية الساحقة من جماهير الشعب لصالح المكتسبات الاجتماعية وحرية القرار الوطني أمام التحديات الداخلية والمؤامرات الخارجية حتى لو أدت هذه التضحية إلى مصادرة الحريات السياسية لكافة القوى الاجتماعية الداخلية. وعاش مندور أزمنته، بل معضلته بين ضخامة الإنجازات التي طالما حلم باتساعها، وضآلة الحريات التي ظل يتطلع لتوسيعها وليس السكوت على تضيقها ناهيك عن مصادرتها.

لم يخرج مندور سليماً من هذه المعضلة مما تسبب بمواجهة مريرة مع العهد الثوري الجديد توجت بحرمانه من العمل في الجامعة، ثم منعه من الممارسة السياسية، والكتابة السياسية، من ثم، بما يخالف التوجهات السائدة...

معضلة ثانية، بل لعلها سبب ومظهر في الآن نفسه للمعضلة الأولى الموضوعية. هذه المعضلة الثانية تعود للشخصية العلمية (أو الثقافية) التي يصدر عنها مندور في كتاباته وينشرها في الصحافة بخاصة. لم يكن مندور محسوباً على "المؤلفين" في "الإبداع" القصصي والمسرحي والروائي أو الشعري. ربما كانت لديه جهود إبداعية من هذا القبيل، ولكنه لم يُعرف بها. عرف مندور كاتباً وناقداً، يقول ما يقوله بصوته هو، وليس بلسان غيره كما الأمر بالنسبة لكتاب الدراما، بمعناها الواسع الذي يعني تمثيل الحياة وخلق صورة موازية فنية موازية شخصياتها ورقية أولاً وأخيراً، بحيث لا يمكن لأي سلطة بشرية أن تجزم بشكل قاطع بأن هذا العمل أو تلك الرؤية، أو هذه الشخصية أو ذاك الرأي إنما يمثل المؤلف أو يحسب على الشخصية المتخيلة... مندور إذن خارج هذه الفرضية⁽¹⁷⁾.

وهكذا أفلت نجيب محفوظ، مثلاً، من فعلته مع الاتحاد الاشتراكي في "ميرamar". بل- ودون أية مقارنات بين مندور و محفوظ وغيرهما- نقول إن ثروت أباطة قال في التجربة الناصرية، من خلال فؤادة وعتريس وزواجهما الباطل أشد مما قاله صالح جودت بقلمه المباشر

وليس بصوته الشعري، في تلك التجربة، مع الأخذ في الاعتبار أن كلام جودت هذا جاء في صحافة السبعينيات وفي أوج الحملة الضارية على الفكر والتجربة الناصريين.⁽¹⁸⁾

لم يكن مندور- في أيامه- إذن، يملك أن يقول رأيه الصريح بطريقة كتاب الدراما، ولم يكن أمامه- في الخمسينيات والستينيات- سبيل لانتقاد الأوضاع القائمة، ولا سيما في مجال الحريات السياسية إلا عن طريق الخطاب المباشر... عن طريق المقال الصحفي تحديداً.. وهنا كانت المعضلة والمواجهة والمعاناة التي بلغت درجة المنع عن الكتابة في الشأن العام، ناهيك عن الحرمان من العمل الأكاديمي... ولم يكن أمام مندور في السنوات الأخيرة من حياته القصيرة سوى الكتابة في الصحف، ولكن بموازاة خطوط حمراء وتحت أسقف محددة وضمن أطر معروفة، وكان هذا -فنياً- من حسن حظ الحركة النقدية والثقافية بشكل عام، وهي الحركة التي ارتادت -للمفارقة- في الخمسينيات والستينيات آفاقاً لم تبلغها أي حركة ثقافية عربية أخرى في أي بيئة أو أي مرحلة في العصر الحديث، وتلك قضية (بل ظاهرة) أخرى.

خاتمة:

ولعلنا الآن نستطيع أن نستجمع بعض ما يمكن استخلاصه من اشتباكنا مع هذا الموضوع الكبير والشائك معاً: مندور بين النقد والصحافة.

1- لم يكن ما قدمه مندور عن طريق ما نشره في الصحف مادة صحفية خفيفة أو مادة انطباعية، بل إن ما كتبه عن هذا الطريق شكّل العمود الفقري لتراثه النقدي المنهجي الذي انبثق من خلاله ما كاد يرقى إلى مستوى النظرية النقدية المتكاملة. وهو ما تشهد عليه سلسلة الكتب التي صدرت بعد رحيله وكل مكوناتها-تقريباً- مما نشره في الصحافة اليومية العامة أو الدوريات الأدبية المتخصصة.

2 - ومن هنا تأتي جهود النجل الأصغر لمندور، الدكتور طارق الذي كرس الجزء الأكبر من وقته لجمع جهود والده المتناثرة بين عشرات الدوريات ليخرج لنا بالكنوز التي زود بها المكتبة العربية من لدن محمد مندور؛ كنوز أخرجها على شكل كتب نالت حقها من حسن التنسيق ودقة التبويب وإحكام التوثيق وإحاطة التقديم⁽¹⁹⁾.

3- ومما خلصنا إليه - كما غيرنا - أن مندور حين كان يكتب في الصحافة، لم يكن ضعيفاً عليها شأنه في هذا شأن "الكتاب المتعاونين" من الذين يقتصر اتصالهم بالصحافة على إرسال مادة ما لنشرها فحسب. بل كان الرجل من أبناء العائلة (الصحفية)، بل رب العائلة في العديد من المراحل سواء قبل ثورة 1952 حين أسس مندور صحيفته الخاصة ولاقى ما لاقاه من عنت ومعاناة، أو بعد ذلك حين كان يتم تكليفه بموقع المحرر أو رئيس التحرير من أرضية الكفاءة وصلابة التجربة... نعم إن مندور هو الناقد والكاتب والأديب، وهو الصحفي المحترف كذلك.

4- إن هذه الورقة لا يمكن أن تزعم أنها الكلمة الأخيرة في مقارنة هذا الموضوع، ولا تزعم أنها الجهد الكافي لبحث إشكالية علاقة مندور بالصحافة؛ فهذه العلاقة متشعبة وعميقة وذات أبعاد متعددة؛ لأن الصحافة بالنسبة لمندور ليست مساحات يملؤها بقلمه فحسب؛ بل إنها مهنة وممارسة ميدانية ولقمة عيش والأهم من هذا كله رسالة قيمية وجهاز أساسي في النضال الوطني بما يؤمن من قضايا.. من هنا فإن الحاجة تدعو لعقد حلقة خاصة - إن لم يكن ورشة عمل - تعالج أطراف الموضوع وتحدد المهام المطلوبة، ومن شأن هذا أن يفتح الباب على مصراعيه لا على تجربة مندور فحسب، بل على تجارب لعديدين ممن سبقوه أو جايلوه أو حتى جاءوا بعده.

الهوامش:

(1) لعل كتب جلال الدين الحماصي تقدم مادة مفيدة في هذا الموضوع: "الخبر والمقال" من مثل كتابه: **من الخبر إلى الموضوع الصحفي**، الصادر عن دار المعارف في مصر في طبعته الأولى سنة 1965، وكذلك الأمر بالنسبة لكتب فاروق أبو زيد، في كتابه **فن الكتابة الصحفية**، وكتب خليل صابات، وعبد اللطيف حمزة، وإجلال خليفة وغيرهم.

(2) يشار في هذا الصدد إلى أن مؤلفات كبرى لشخصيات أدبية كبرى من مثل طه حسين: **حديث الأربعاء والعقاد: ساعات بين الكتب والحياة**، والرافعي: **وحي القلم**، وغيرهم كانت مكوناتها كلها في الأصل مقالات تم نشرها في الصحف والمجلات.

(3) من السهل ملاحظة هذه الحركة في تاريخ نتاج مندور الذي بات منشورا اليوم في كتبه متقاربة المحتوى. إن كتاب: **الصحافة وحريتها... الفنون ووحدها** (2007)، مثلاً، يسجل لقسم كبير من الجهود الأكاديمية النظرية التي أنجزها مندور في حقل الصحافة والإعلام في الأربعينيات، في حين يتضمن كتاب: **محكمة الضمير الوطني** (2009) صفحات تسجل صراعه السياسي وتجربته في السجن والاعتقال والعمل السياسي في الأربعينيات وطرف من الخمسينيات. أما كتاب: **تأسيس فنون السرد وتطبيقاتها** (2008) فيحتوي على جزء كبير من جهود مندور التطبيقية في حقل النقد الأدبي والفني في الستينيات بخاصة.

(4) أورد طارق محمد مندور إشارات كثيرة إلى قصة إصدار هذه الدورية، وإصرار مندور بل معاناته على استمرار إصدارها، ولكن الظروف كانت أقوى من إمكانياته. انظر: **الصحافة وحريتها... الفنون ووحدها**، إعداد طارق مندور، تقديم فوزي فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2007، ص 12 وما بعدها، كما تحدث عن هذا الإصدار فؤاد قنديل في كتابه: **محمد مندور... شيخ النقد**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2015، ص 59 وما بعدها، نقلاً عما رواه مندور لفؤاد دودة في كتابه: **عشرة أدباء يتحدثون**، القاهرة، 1984.

(5) حول هذه الأنواع انظر:

The Missouri Group; Brain S. Brooks, Goerge Kennedy, Daryl Moen, Don Randy: **News Reporting and Writing**, 8thed, New York. Bedford's /st Martins, 2004.

(6) انظر: **الصحافة وحريتها... الفنون ووحدها**، ص 21.

(7) المرجع السابق، ص 22.

(8) المرجع السابق، ص 21.

(9) من الملاحظ أن رواد المقالة وكبار كتابها كانوا في الأساس - وما زال معظمهم - من الكتاب والنقاد والأدباء وأساتذة الأدب، ولم يحتف معظم هؤلاء بأسسها النظرية وآليات كتابتها وطرق بنائها، وربما كانت محاضرات مندور على طلبة الصحافة، وهي المحاضرات التي أضافها ابنه طارق إلى كتاب: **الصحافة وحريتها... الفنون ووحدها**، من المحاولات التأصيلية المبكرة في هذا الحقل.

(10) انظر: **محمد مندور: الصحافة وحريتها... الفنون ووحدها**، ص 116.

(11) حول تاريخ المقالة في الأدب المعاصر انظر:

أ. عبد اللطيف حمزة: **أدب المقالة الصحفية في مصر** (8 أجزاء)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طبعة جديدة، 1995.

- ب. محمد يوسف نجم، فن المقالة، بيروت، 1958.
- ج. الدكتور فائق مصطفى: المقالة الأدبية والاستنارة، إيلاف، السليمانية، 2016، وكذلك كتابه: دفاع عن المقالة الأدبية، كركوك، 2008.
- (12) انظر قائمة الكتب التي تشكل مقالات مندور مادتها، وتم تجميعها وإصدارها بعد رحيله، في الهامش رقم (19) في هذه الدراسة. وفي مقابلة شخصية مع الدكتور طارق الابن الأصغر لمحمد مندور الذي تولى العناية بجمع تراث أبيه وتنسيقه وتحريره ونشره، في منزله بمنيل الروضة في القاهرة بتاريخ 20/11/2015، أطلعني هذا على الأرشيف الذي كان والده قد أعده بنفسه لما كان ينشره في الدوريات. ودون أية مغالاة فإن هذا الأرشيف يضم آلافاً من المواد التي دأب مندور على كتابتها ودفعها إلى إحدى الدوريات بشكل شبه يومي خلال مدة تربو على عشرين عاماً، وتحديدًا ما بين 1945 و 1965.
- (13) حول الصورة القلمية، انظر: <https://www.thebalance.com/what-is-a-feature-2316029>.
- (14) انظر: محمد مندور (في حياتي) أساتذة وزملاء، جمع وتقديم: طارق مندور كتاب الثقافة الجديدة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2007 ص 113.
- (15) المصدر السابق، ص 115.
- (16) انظر: معارك أدبية، دار نخضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة (طبعة جديدة، 2011).
- (17) ناقش ثروت عكاشة هذه القضية بقدر من التوازن والموضوعية، في تصديره لمذكراته التي صدرت في جزئين عن دار الهلال، بعنوان: مذكراتي، 1990، انظر: الجزء الأول، ص 7 وما بعدها.
- (18) حول واقع العلاقة بين السلطة الناصرية والكتاب والمثقفين بعامة؛ انظر: يوسف القعيد؛ محمد حسنين هيكل يتذكر: عبد الناصر والمثقفون والثقافة، دار الشروق، القاهرة، 2003، الفصل الثاني: علاقة نجيب محفوظ؛ لماذا محلك سر، ص 71 وما بعدها.
- (19) حتى الآن بلغ مجموع ما صدر لمحمد مندور بعد رحيله، من خلال تجميع ما ترك من كتاباته في الصحف والمجلات حوالي خمسة عشر كتاباً "جديداً"، وما زال ابنه الدكتور طارق عاكفاً على جمع باقي ما ترك محمد مندور من تراث متناثر في الصحف والمجلات، وهو كثير، ويحتاج إلى عدد من الكتب الأخرى. و نشير إلى كتب من مثل:

1- الصحافة وحريتها ... الفنون ووحدها. جمع طارق مندور 2007،

2- أساتذة وزملاء في حياتي، جمع وتقديم طارق مندور 2007.

- 3- تأسيس فنون السرد وتطبيقاتها، جمع مادته وقدم له: طارق مندور، 2008.
- 4- محاكمة الضمير الوطني، إعداد وتقديم: طارق مندور 2009.
- 5- في الأخلاق والضمير. إعداد وتقديم : طارق مندور.
- 6- نظرية مندور النقدية. إعداد وتقديم: طارق مندور، 2014.
- 7- محمد مندور: ذكريات أدبية. إعداد وتقديم: طارق مندور.
- 8- محمد مندور (مترجم) إبداعات عالمية: تقديم : طارق مندور، 2015.